سورة العنكبوت(١)



﴿ الٓمٓ ١ ﴾

سبق أنْ تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطعة فى بدايات سور القرآن ، كلما تكررت هذه الظاهرة نتكلم عن مجالات الأذهان فى فهمها ، وما دام الحق سبحانه يُكررها فعلينا أيضاً أن نُكرِّر الحديث عنها ، ولماذا ينثر الله هذه الظاهرة فى سور القرآن ؟ لتظل دائماً على البال .

(١) سورة العنكبوت هى السورة رقم ٢٩ فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٦٩ آية ، اختُلف فى كونها مكية أم مدنية ، قال الحسن وعكرمة وعطاء وجابر : مكية كلها . وقال ابن عباس وقتادة فى أحد قوليهما : مدنية كلها ، وفى القول الآخر لهما وهو قول يحى بن سلام أنها مكية إلا عشر آيات من أولها ، فإنها نزلت بالمدينة فى شأن من كان من المسلمين بمكة . وقال على بن أبى طالب : نزلت بين مكة والمدينة . [تفسير القرطبى ٥٢١١/٧] . نزلت بعد سورة الروم وقبل سورة المطففين ، وهى السورة رقم ٨٤ فى ترتيب نزول سور القرآن . [انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٧/١] .

وقلنا : إن القرآن الكريم مبنيٌّ فى كل آياته وسوره على الوَصْل ، لا على الوقف ، اقرأ : ﴿ مُدْهَامَّتَان (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَان[1] (٦٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (٦٧) ﴾ [الرحمن]

فلم يقل ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (٦٧) ﴾ [الرحمن] ويقف ، إنما وصل : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَان (٦٦) ﴾ [الرحمن] لأن القرآن موصول ، لا فصلَ أبداً بين آياته ؛ لذلك ليس فى القرآن من وقف واجب ، إنما لك أن تقف لضيق النفَس ، لكن حينما تعيد تعيد بالوصل .

وكذلك القرآن مبنيٌّ على الوَصْل فى السور ، فحين تنتهى سورة لا تنتهى على سكون ، فلم يَقُلْ - سبحانه وتعالى - وإليه ترجعونْ بسكون النون ، إنما (تُرْجَعُونَ بسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحيمِ) ليبدأ سورة أخرى موصولة .

فهذه إذن سمة عامة فى آيات القرآن وسُوره إلا فى الحروف المقطَّعة فى أوائل السور ، فهى مبنية على الوقف ألفْ لامْ ميمْ هكذا بالسكون ولم يقل : ألفٌ لامٌ ميمٌ على الوَصْل ، لماذا ؟ لأنها حروف مُقطَّعة ، قد يظنها البعض كلمة واحدة ، ففصَل بينها بالوقف .

لذلك يقول ﷺ : « لا أقول الم حرف . ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[2] وليؤكد هذا المعنى جعلها على الوقف ، كل حرف على حدة .

---

(١) نضخت البئر : ارتفع ماؤها وجاش وفار . أى : يخرج ماؤهما غزيراً . ونضاخة : صيغة مبالغة تدل على الكثرة . [القاموس القويم ٢/٢٧٠] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) وقال : « حديث حسن صحيح » .

وتكلمنا على هذه الحروف وقلنا : إنها خامات القرآن ، فمن مثل هذه الحروف يُنسَج كلام الله ، وقلنا : إنك إنْ أردتَ أن تُميِّز مهارة النسْج عند بعض العمال مثلاً لا تعطى أحدهم قطناً ، والآخر صوفاً ، والآخر حريراً مثلاً ؛ لأنك لا تستطيع التمييز بينهم ، لأن الخامات مختلفة ، فالحرير بطبيعته سيكون أنعم وأرقّ . فإنْ أردتَ معرفة المهارة فوحِّد المادة الخام عند الجميع .

فكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنا : إن القرآن مُعْجز ، بدليل أنكم تملكون نفس حروفه ، ومع ذلك عجزتُمْ عن معارضته ، فقد استخدم القرآن نفس حروفكم ، ونفس كلماتكم وألفاظكم ، وجاء بها فى صورة بليغة ، عَزَّ عليكم الإتيان بمثلها .

إذن : اختلف أسلوب القرآن ؛ لأن الله تعالى هو الذى يتكلم . فمعنى (الم) هذه نفس حروفكم فأتوا بمثلها .

أو : (الم) تحمل معنى من المعانى ؛ لأن ألف لام ميم أسماء حروف ، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا المتعلم ، فالأُمىُّ يقول (كتب) لكن لا يعرف أسماء حروفها ، وتقول للولد الصغير فى المدرسة : تهجَّ كتب فيقول لك (كاف فتحة كَ) و (تاء فتحة تَ) و (باء فتحة بَ) .

إذن : لا يعرف أسماء الحروف إلا المتعلم ، وسيدنا رسول الله ﷺ كان أمياً ، فمن أين نطق بأسماء الحروف الم ، طه ، يس ، ق .. إلخ . إذن : لا بُدَّ أن ربه علّمه ولقّنه هذه الحروف ، ومن هنا جاءت أهمية التلقين والتلقّى فى تعلُّم القرآن ، وإلا فكيف يُفرِّق المتعلم بين (الم) هنا وبين ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① ﴾ [الشرح] فينطق الأولى

على الوقْف ، والأخرى على الوَصْل ، ينطق الأولى بأسماء الحروف ، والثانية بمُسمَّياتها ؟

وتحمل (الم) أيضاً معنى التنبيه للسامع ، فالقرآن نزل بأسلوب العرب ولغتهم ، فلا بُدَّ أن تتوفر له خصائص العربية والعربية الراقية، فلو قرأنا مثلاً فى الشعر الجاهلى نجد عمرو بن كلثوم[١] يقول :

أَلاَ هُبِّى بصَحْنِك فَاصْبِحينَا   ولاَ تُبقِى خمور الأندرينا

نسأل : ماذا أفادت (ألاَ) هنا ، والمعنى يصح بدونها ؟ (ألا) لها معنى عند العربى ؛ لأنها تنبهه إنْ كان غافلاً حتى لا يفوته شىء من كلام مُحدِّثه ، حينما يُفَاجأ به ، كما تنادى أنت الآن مَنْ لا تعرفه فتقول : (اسمع يا ....) كأنك تقول له : تنبه لأننى سأكلمك .

والتنبيه جاء فى اللغة من أن المتكلم يتكلَّم برغبته فى أى وقت ، أما السامع فقد يكون غافلاً غير مُنتبه ، أو ليس عنده استعداد لأنْ يسمعَ ، فيحتاج لمن يُنبِّهه ليفهم ما يُقال له ، إنما لو فاجأتَه بالمراد ، فربما فاته منه شىء قبل أنْ يتنبه لك .

وكذلك فى (الم) حروف للتنبيه ، على أنه سيأتى كلام نفيس اسمعه جيداً ، إياك أنْ يضيع منك حرف واحد منه . كما يصح أنْ يكون لهذه الحروف معانٍ أخرى ، يفهمها غيرنا ممَّنْ فتح الله عليهم . فهى ـ إذن ـ معين لا ينضب ، يأخذ منه كُلٌّ على قَدْره .

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم بن مالك ، من بنى تغلب ، أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى بلاد ربيعة فى شمال جزيرة العرب ، ساد قومه تغلب وهو فتى ، وعمَّر طويلاً ومات فى الجزيرة الفراتية نحو ٤٠ ق هـ . [الأعلام للزركلى ٥/٨٤] . والبيت من معلقته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ[(١)] أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ ﴾

الفعل (حسِب) بالكسر في الماضى ، وبالفتح فى المضارع (يحسَب) يعنى : ظن . أما : (حسَب) والمضارع (يحسِب) بالكسر أى : عَدَّ .

فالمعنى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ .. ۝٢ ﴾ [العنكبوت] أى : ظنوا . والهمزة للاستفهام ، وهى تفيد نفى هذا الظن وإنكاره ، لأنهم حَسِبوا وظنوا أنْ يتركهم الله دون فتنة وتمحيص واختبار .

والحق سبحانه يريد أن يحمل أولو العزم رسالة الإسلام ؛ لأن الإسلام لا يتصدَّى لحمل دعوته إلا أقوياءُ الإيمان الذين يقدرون على حمل مشاق الدعوة وأمانة تبليغها .

والإيمان ليس كلمة تُقال ، إنما مسئولية كبرى ، هذه المسئولية هى التى منعتْ كفار مكة أنْ يؤمنوا ؛ لأنهم يعلمون أن كلمة لا إله إلا الله ليست مجرد كلمة وإلا لَقَالوها ، إنما هى منهج حياة له متطلبات . إنها تعنى : لا مُطَاعَ إلا الله ، ولا معبودَ بحقٍّ إلا الله ، وهم لا يريدون

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس وغيره : يريد بالناس فى الآية قوماً من المؤمنين كانوا بمكة . وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، كسلمة بن هشام ، وعياش ابن أبى ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وعمار بن ياسر ، وياسر أبوه وسمية أمه وعدة من بنى مخزوم وغيرهم . قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة . قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما فى معناه من الأقوال فهى باقية فى أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥٢١٣/٧] وانظر أيضاً [أسباب النزول للواحدى ص ١٩٥] .

هذه المسألة لتظل لهم مكانتهم وسلطتهم الزمنية .

لذلك يقول سبحانه هنا ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا .. ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت] فالإيمان ليس قَوْلاً فحسب ؛ لأن القول قد يكون صدْقاً ، وقد يكون كذباً ، فلا بُدَّ بعد القول من الاختبار وتمحيص الإيمان ﴿ وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت] فإنْ صبر على الابتلاءات وعلى المحن فهو صادق الإيمان .

ويؤكد سبحانه هذا المعنى في آية أخرى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج]

وقد محَّص الله السابقين الأولين من المؤمنين بآيات وخوارق تخالف الناموس الكوني ، فكان المؤمن يُصدِّق بها ، ويؤمن بصدْق الرسول الذي جاء بها ، أما المتردد المتحيِّر فيُكذِّب بها ، ويراها غير معقولة .

ومن ذلك ما كان من الصِّدِّيق أبي بكر في حادثة الإسراء والمعراج ، فلمَّا حدَّثوه بما قال رسول الله ﷺ قال : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] في حين ارتد البعض وكذَّبوا ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد من هذه الخوارق - التي يقف أمامها العقل - أنْ يُميِّز

(١) قالت عائشة رضي الله عنها : لما أسرى بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبي بكر فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا: نعم قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة ؛ فلذلك سُمِّي أبو بكر الصديق . أخرجه الحاكم في مستدركه (٦٢/٣) وصححه وأقره الذهبي .

بين الناس ليحمل أمر الدعوة أشداءُ الإيمان والعقيدة ، ومَنْ لديهم يقين بصِدْق الرسول فى البلاغ عن ربه .

وسبق أنْ بيَّنا غباء مَنْ كَذَّب بحادثة الإسراء والمعراج من كفار مكة الذين قالوا لرسول الله : أتدَّعى أنك أتيت بيت المقدس فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[1] ؟ وأنهم غفلوا أو تغافلوا عن نص الآية : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ۝١ ﴾ [الإسراء] فلم يقل محمد : إنى سريت بنفسى إنما أُسْرى بى .

وقلنا للرد عليهم : لو جاءك رجل يقول لك : لقد صعدتُ بولدى الرضيع قمة إفرست مثلاً ، أتقول له : كيف يصعد الرضيع قمة إفرست ؟

وسبق أنْ تكلَّمنا فى قضية ينبغى أن تظل فى أذهانكم جميعاً ، وهى أن كل فعل يأخذ نصيبه من الزمن على قَدْر قوة فاعله ، فالوزن الذى ينقله الطفل الصغير فى عدة مرات تحمله أنت فى يد واحدة . فالزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً فكلما زادت القوة قلَّ الزمن ، فالذى يذهب مثلاً إلى الأسكندرية على حمار غير الذى يذهب فى سيارة أو على مَتْن طائرة . وهكذا .

إذن : قِسْ على قدر قوة الفاعل ، فإنْ كان الإسراء بقوة الله تعالى ، وهى قوة القوى فلا زمن ، وهذه مسألة يقف عندها العقل ، ولا يقبلها إلا بالإيمان .

إذن : فالحق سبحانه يُمحِّصكم ويبتليكم ؛ لأنه يريدكم لمهمة

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٩٨) : « فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْر البين ، والله إن العير لتُطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ، ويرجع إلى مكة » .

عظيمة ، لا يصلح لها إلا الصنديد[1] القوى فى إيمانه ويقينه .

لذلك يقول سبحانه فى أكثر من موضع : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد]

وقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ .. (١٤٢) ﴾ [آل عمران]

فهذه الابتلاءات كالامتحان الذى نُجريه للتلاميذ لنعرف مقدرة كل منهم ، والمهمة التى يصلح للقيام بها ، ومعلوم أن الابتلاءات لا تُذَمُّ لذاتها ، إنما لنتائجها المترتبة عليها ، فما جُعلَتْ الابتلاءات إلا لمعرفة النتائج ، وتمييز الأصلح للمهمة التى نُدب إليها .

ومعنى ﴿ يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت] يُخْتبرون . مأخوذة من فتنة الذهب ، حين نصهره فى النار ؛ لنُخرج ما فيه من خَبَث ، ونُصفّى معدنه الأصلح ، فيما يناسب مهمته .

ومن ذلك ما ضربه الله لنا مثلاً للحق وللباطل فى قوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

(١) الصنديد : السيد الشريف . وكل عظيم غالب : صنديد . [لسان العرب ـ مادة : صند] .

فالفتنة ما كانت إلا لنعرف الصادق فى القَوْلة الإيمانية والكاذب فيها : الصادق سيصبر ويتحمل ، والكاذب سينكر ويتردد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يُسلِّى السابقين من أمة محمد الذين عُذِّبوا وأوذوا ، وضُربوا بالسياط تحت حَرِّ الشمس ، ووُضعت الحجارة الثقال على بطونهم ، والذين جاعوا حتى أكلوا الميتة وأوراق الشجر يُسلِّيهم : لَسْتم بدعاً فى هذه الابتلاءات فاصمدوا لها كما صمد السابقون من المؤمنين .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ۝٣ ﴾ [العنكبوت] فانظر مثلاً إلى ابتلاء بنى إسرائيل مع فرعون ، إذن فابتلاؤكم أهون وأخفّ ، وفيه رحمة من الله بكم وأنتم أيسر منهم ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣ ﴾ [العنكبوت]

ولك أن تقول : ألم يكُن الله تعالى يعلم حقيقتهم قبل أنْ يبتليهم ؟ بلى ، يعلم سبحانه حقيقةَ عباده ، وليس الهدف من اختبارهم العلم بحقيقتهم ، إنما الهدف أنْ يُقر العبد بما عُلم عنه .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حينما نقول للمدرس مثلاً : اعْطنا نتيجة هؤلاء التلاميذ ، فليس فى الوقت سعة للامتحان فيقول منَ واقع خبرته بهم : هذا ناجح ، وهذا راسب ، وهذا الأول ، وهذا كذا . عندها يقوم الراسب ويقول : لو اختبرتنى لكنت ناجحاً ، ولو اختبره معلِّمه لرسب فعلاً . إذن : فربنا - عز وجل - يختبر

عباده ليُقر كل منهم بما عُلم عنه .

﴿ فليعلمنَّ اللَّهُ الَّذين صدقُوا وليعْلمنَّ الْكاذبين ③ ﴾ [العنكبوت] علْم ظهور وإقرار من صاحب الشأن نفسه ، بحيث لا يستطيع إنكاراً ، حيث سيشهد هو على نفسه حين تشهد عليه جوارحه .

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ(١) يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ④ ﴾

هنا أيضاً ﴿ حسب .. ④ ﴾ [العنكبوت] أى : ظن الذين يعملون السيئات ﴿ أن يسْبقُونا .. ④ ﴾ [العنكبوت] أى : يُفلتوا من عقابنا ، تقول : سبق فلان فلاناً يعنى : أفلت منه وهو يطارده ، فالمعنى أنهم لن يستطيعوا الإفلات من العذاب أو الهرب منه ، وإنْ كانوا يعتقدون ذلك أو يظنونه ، فبئس هذا الظن .

﴿ ساء ما يحْكُمُون ④ ﴾ [العنكبوت] أى : قَبُح حكمهم وبَطُل ، وحين نحكم على ظنهم وعلى حكمهم بالبطلان فإنما نثبت قضيتنا ، وهى أنهم لن يُفْلتوا من عقابنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ⑤ ﴾

---

(١) قال ابن عباس : يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبى معيط وغيرهم . [أورده القرطبى فى تفسيره ٥٢١٥/٧] .

معنى ﴿ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ .. ⦗٥⦘ ﴾ [العنكبوت] يعنى : يؤمن به وينتظره ويعمل من أجله ، يؤمن بأن الله الذى خلقه وأعدَّ له هذا الكون ليحيا حياته الطيبة ، وأنه سبحانه بعد ذلك سيُعيده ويحاسبه ؛ لذلك إنْ لم يعبده ويطعْه شكْراً له على ما وهب ، فليعبده خوفاً منه أنْ يناله بسوء فى الآخرة .

وأهل المعرفة يروْنَ فرقاً بين مَنْ يرجو الثواب ويرجو رحمة الله ، ومن يرجو لقاء الله لذات اللقاء ، لا خوفاً من نار ، ولا طمعاً فى جنة ؛ لذلك تقول رابعة العدوية[1] :

كُلُّهم يَعْبدُونَ مِنْ خَوْفِ نَارٍ ... ويَروْنَ النجاةَ حَظّاً جَزِيلاً
أوْ بِأنْ يَسْكُنُوا الجِنانَ فيحظَوْا ... بِقُصُورٍ ويَشْرِبُوا سَلْسبِيلا
لَيْسَ لى بالجِنَانِ والنَّارِ حَظٌّ ... أنَا لاَ أبتَغِى بِحِبى بَدِيلاً

أى : أحبك يا رب ، لأنك تُحَبُّ لذاتك ، لا خوفاً من نارك ، ولا طمعاً فى جنتك ، وهى أيضاً القائلة : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنى أحبك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، وإنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك خوفاً من نارك فاحرقنى بها .

ويقول تعالى فى سورة الكهف : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ⦗١١٠⦘ ﴾ [الكهف] ولو كانت الجنة لأن لقاء الله أعظم ، وهو الذى يُرْجى لذاته .

والحق سبحانه يؤكد هذه المسألة بأكثر من مؤكد : ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ .. ⦗٥⦘ ﴾ [العنكبوت] فأكَّده بإن واللام وصيغة اسم الفاعل الدالة

---

(١) هى : رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير ، مولاة آل عتيك ، البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ومولدها بها ، لها أخبار فى العبادة والنُّسُك ، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هـ [الأعلام للزركلى ٣/ ١٠] .

على تحقُّق الفعل ، كما قال سبحانه ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ (٨٨) ﴾ [القصص] ولم يقل : سيهلك ، وقوله سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ [الزمر]

يخاطبهم بهذه الصيغة وهم ما يزالون أحياءً ؛ لأن الميِّت : مَنْ يؤول أمره وإن طال عمره إلى الموت ، أما مَنْ مات فعلاً فيُسمَّى (مَيْت) .

وأنت حينما تحكم على شيء مستقبل تقول : يأتى أو سيأتى ، وتقول لمن تتوعده : سأفعل بك كذا وكذا ، فأنت جازفتَ وتكلمتَ بشيء لا تملك عنصراً من عناصره ، فلا تضمن مثلاً أنْ تعيش لغد ، وإنْ عشتَ لا تضمن أن يعيش هو ، وإنْ عاش ربما يتغير فكرك ناحيته ، أو فقدتَ القدرة على تنفيذ ما تكلمت به كأنْ يصيبك مرض أو يُلِم بك حدث .

لكن حينما يتكلم مَنْ يملك أَزِمَّة الأمور كلها ، ويعلم سبحانه أنه لن يفلت أحد منه ، فحين يحكم ، فليس للزمن اعتبار فى فعله ، لذلك لم يقل سبحانه : إن أجل الله سيأتى ، بل ﴿ لآتٍ .. (٥) ﴾ [العنكبوت] على وجه التحقيق .

وسبق أنْ ذكرنا فى هذا الصدد قوله تعالى عن القيامة : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ..(١) ﴾ [النحل] وقد وقف السطحيون أمام هذه الآية يقولون : وهل يستعجل الإنسان إلا ما لم يَأْتِ بَعْد ؟ لأنهم لا يفهمون مراد الله ، وليست لديهم مَلَكة العربية ، فالله تعالى يحكم على المستقبل ، وكأنه ماضٍ أى مُحقَّق ؛ لأنه تعالى لا يمنعه عن مراده مانع ، ولا يحول دونه حائل .

ولفظ الأجل جاء فى القرآن فى مواضع كثيرة ، منها : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف]

وفى الآية التى معنا ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ .. (٥) ﴾ [العنكبوت]

والأجلان مختلفان بالنسبة للحضور الحياتى للإنسان ، فالأجل الأول يُنهى الحياة الدنيا ، والأجل الآخر يُعيد الحياة فى الآخرة للقاء الله عز وجل ، إذن : فالأجلان مرتبطان .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يعرض لنا قضية غيبية يُؤنسنا فيها بشىء حسىٍّ معلوم لنا ، حتى يستطيع العقل أن ينفذ من الحسىِّ إلى الغيبى غير المشاهد . وأنت ترى أن أعمار بنى آدم فى هذه الحياة تتفاوت : فواحد تغيض به الأرحام ، فلا يخرج للحياة ، وواحد يتنفس زفيراً واحداً ويموت .. إلخ .

وفى كل لحظة من لحظات الزمن نعاين الموت ، مَنْ يموت بعد نفَس واحد ، ومَنْ يموت بعد المائة عام . إذن : فلا رتابة فى انقضاء الأجل ، لا فى سنٍّ ولا فى سبب : فهذا يموت بالمرض ، وهذا بالغرق ، وهذا يموت على فراشه .

لذلك يقول الشاعر :

فَلا تحسَبِ السُّقْم كأسَ المماتِ   وإنْ كانَ سُقْماً شَديد الأثَر
فَرُبَّ عليلٍ تَراهُ استفاقَ   ورُبَّ سَليمٍ تَرَاهُ احتُضرْ

وقال آخر :

وَقَدْ ذَهَب الممتلى صحةً   وصَحَّ السَّقيمُ فَلَمْ يذْهب

وتجد السبب الجامع فى الوباءات التى تعترى الناس ، فيموت

واحد ويعيش آخر ، فليس فى الموت رتابة ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يقول : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف] نجد واقع الحياة يؤكد هذا ، فلا وحدةَ فى عمر ، ولا وحدةَ فى سبب .

والصدق فى الأجل الأول المشاهد لنا يدعونا إلى تصديق الأجل الآخر ، وأن أجل الله لآت ، فالأجل الذى أنهى الحياة بالاختلاف هو الذى يأتى بالحياة بالاتفاق ، فبنفخة واحدة سنقوم جميعاً أحياءً للحساب ، فإن اختلفنا فى الأولى فسوف نتفق فى الآخرة ؛ لأن الأرواح عند الله من لَدُنْ آدم عليه السلام وحتى تقوم الساعة ، وبنفخة واحدة يقوم الجميع .

وسبق أن قُلْنا : إن الأزمان ثلاثة : حاضر نشهده ، وماضٍ غائب عنا لا نعرف ما كان فيه ، ومستقبل لا نعرف ما يكون فيه . والحق سبحانه يعطى لنا فى الوجود المشاهد دليلَ الصدق فى غير المشاهد ، فنحن مثلاً لا نعرف كيف خلقنا الخَلْق الأول إلا من خلال ما أخبرنا الله به من أن أصلُ الإنسان تراب اختلط بالماء حتى صار طيناً ، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً كالفخار .. إلخ .

ثم جعل نسل الإنسان من نطفة تتحول إلى علقة ، ثم إلى مضغة ، ثم إلى عظام ، ثم تُكْسى العظام لحماً . وإنْ كان العلم الحديث أرانا النطفة والعلقة والمضغة ، وأرانا كيف يتكوَّن الجنين ، فيبقى الخَلْق الأول من تراب غيباً لا يعلمه أحد .

ولا تُصدِّق من يقول : إنى أعلمه ؛ لأن الله تعالى حذرنا من هؤلاء المضلين فى قوله : ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ

أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ [الكهف]

فلا علمَ لهم بخَلْق الإنسان ، ولا علمَ لهم بخَلْق ظواهر الكون ، فلا تسمع لهم ، وخُذْ معلوماتك من كتاب ربك الذى خلق سبحانه ، ويقوم وجود المضلين الذين يقولون : إن الأرض قطعة من الشمس انفصلتْ عنها ، أو أن الإنسان أصله قرد - يقوم وجودهم ، وتقوم نظرياتهم دليلاً على صدق الحق سبحانه فيما أخبر .

وإلا ، فكيف نُصدِّق نظرية ترقِّى القرد إلى إنسان ؟ ولماذا ترقَّى قرد (دارون) ولم تترقَّ باقى القرود ؟

وإذا كان المؤمن مُصدِّقاً بقوله تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر] لأنه آمن بالله ، وآمن بما جاء به رسول الله ، فكيف بمَنْ لا يؤمن ولا يُصدِّق ؟ لذلك يُؤنس الحق سبحانه هذه العقول المستشرفة لمعرفة حقائق الأشياء يُؤنسها بما تشاهد : فإنْ كنتَ لا تُصدِّق مسألة الخَلْق فأنت بلا شكٍّ تشاهد مسألة الموت وتعاينه كل يوم ، والموت نَقْضٌ للحياة ، ونَقْض الشىء يأتى عكْس بنائه .

والخالق - عز وجل - أخبر أن الروح هى آخر شىء فى بناء الإنسان ، لذلك هى أول شىء يُنقَض فيه عند الموت ، إذن : مشهدك فى كيف تموت ، يؤكد لك صدْق الله فى كيف جئت ؟

وأجل الآخرة أمر لا بُدَّ منه ليُثاب المطيع ويُعَاقب العاصى ، ألاَ ترى إلى النظم الاجتماعية حتى عند غير المؤمنين تأخذ بهذا المبدأ

لاستقامة حركة الحياة ؟ فما بالك بمنهج الله تعالى فى خَلْقه ، أيترك الظالم والمجرم يُفلت من العقاب فى الآخرة بعد أنْ أفلت من عقاب الدنيا ؟

وكنا نردُّ بهذا المنطق على الشيوعيين : لقد عاقبتُم مَنْ طالته أيديكم من المجرمين ، فكيف بمَنْ ماتوا ولم تعاقبوهم ، أليستِ الآخرةُ تحلّ لكم هذا المأزق ؟

ثم تُختَم الآية بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ﴾ [العنكبوت] ألاَ ترى أنه تعالى لو قال : العليم فقط لشملَ المسموعَ أيضاً ؛ لأن العلم يحيط بكل المدركات ؟ فلماذا قال ﴿ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ﴾ [العنكبوت] ؟

قالوا : لأن اللغة العربية حينما تكلمتْ عن العمل والفعل والقول قسَّمت الجوارح أقساماً : فاللسان له القول ، وبقية الجوارح لها الفعل ، وهما جميعاً عمل ، فالقول عمل اللسان ، والفعل عمل بقية الجوارح ، فكأن اللسان أخذ شطر العمل ، وبقية الجوارح أخذت الشطر الآخر .

وباللسان معرفة إيمانك ، حين تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهى أشرف ما يعمل الإنسان ، وبه بلاغ الرسول عن الله لخَلْقه ، إذن : فأفعال الجوارح الشرعية ناشئة من اللسان ومن السماع ؛ لذلك جعل القول وهو عمل اللسان شطر العمل كله .

ولأهمية القول قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ [الصف] فكل فعل ناشىء عن انصياع لقول أو سماع لقول ؛ لذلك ختم سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ﴾ [العنكبوت]

﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾

وكلمة ﴿ جَاهَدَ .. ۝٦ ﴾ [العنكبوت] تناسب النجاح فى الابتلاء ، والجهاد : بذْل الجهد فى إنفاذ المراد ، ومنه اجتهد فلان فى كذا يعنى : عمل أقصى ما فى وُسْعه من الجدّ والاجتهاد فى أن يستنبط الحكم .

والجهاد له مجالان : مجال فى النفس يجاهدها ليقْوَى بمجاهدة نفسه على مجاهدة عدوه .

وجاهد : مفاعلة ، كأن الشىء الذى تريده صعب ، يحتاج إلى جهد منك ومحاولة ، والمفاعلة تكون من الجانبين : منك ومن الشىء الذى يقابلك ، وأول ميادين الجهاد النفس البشرية ؛ لأن ربك خلق فيك غرائز وعواطف لمهمة تؤديها ، ثم يأتى منهج السماء ليكبح هذه الغرائز ويُرقّيها ، حتى لا تنطلق معها إلى ما لا يُباح .

فحب الاستطلاع مثلاً غريزة محمودة فى البحث العلمى والاكتشافات النافعة ، أمّا إنْ تحوّل إلى تجسُّس وتتبع لعورات الناس فهو حرام ؛ الأكل والشرب غريزة لتقتات به ، وتتولد عندك القدرة على العمل ، فإنْ تحوَّل إلى نهم وشراهة فقد خرجت بالغريزة عن مرادها والهدف منها .

وعجيب أمر الناس فى تناول الطعام ، فالسيارة مثلاً لا نعطيها خليطاً من الوقود ، إنما هو نوع واحد ، أما الإنسان فلا تكفيه عدة أصناف ، كل منها لها تفاعل فى الجسم ، حينما تتجمع هذه التفاعلات تضر أكثر مما تنفع .

إذن : هذه الغرائز تحتاج منك إلى مجاهدة ؛ لتظل فى حَدِّ الاعتدال ، عملاً بالأثر : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع ، ولا نشرب حتى نظمأ ، وإذا شربنا لا نقنع » .

ولو عملنا بهذا الحديث لَقضَيْنا على القنبلة الذرية للاقتصاد فى بلادنا ، وكم تحلو لك اللقمة بعد الجوع مهما كانت بسيطة وغير مكلِّفة ؛ لذلك يقولون : نعم الإدام الجوع ، ثم إذا أكلتَ لا تملأ المعدة ، ودع كما قال رسول الله ﷺ : « فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفَسه »[1] .

وبهذا المنهج الغذائى الحكيم نضمن بنية سليمة وعافية لا يخالطها مرض .

فالغرائز خلقها الله فيك لمهمة ، فعليك أنْ تقف بها عند مهمتك . ومثل الغرائز العواطف من حب وكُرْه وشفقة وحُزْن .. إلخ ، وهذه ليس لها قانون إلا أنْ تقفَ بها عند حدود العاطفة لا تتعداها إلى النزوع ، فأحبب مَنْ شئتَ وأبغض مَنْ شئتَ ، لكن لا تتعدَّ ولا تُرتِّب على العاطفة حكماً .

وقد ذكرنا لهذه المسألة مثالاً بسيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وكان له أخٌ اسمه زيد قُتل ، ثم أسلم قاتله ، فكان عمر كلما رآه يقول له : ازْوِ عنى وجهك ـ يعنى : أنا لا أحبك ـ فيقول : أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال : لا ، قال : إنما يبكى على الحب

(١) عن المقدام بن معد يكرب سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن غلب الآدمى نفسه فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفَس » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٨٠) وابن ماجة فى سننه (٣٣٤٩) وأحمد فى مسنده (١٣٢/٤) والحاكم فى مستدركه (٣٣١/٤) .

النساء . يعني : الحب والكره مسائل يهتم بها النساء ، والمهم العمل ، وما يترتب على هذه العواطف .

ومن المجاهدة مجاهدة مَنْ سُلِّط عليك من جبار أو نحوه ، تجاهده وتصبر على إيذائه ، فحبُّك للحق يجعلك تصبر عليه ، يقول تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد]

كل هذه بلاءات تحتاج إلى مجاهدة ، فإنْ كان لك غريم فإنْ قدرتَ أن تدفع أذاه بالتي هي أحسن فافعل ، وإنْ أردت أنْ تعاقب فعاقب بالمثل ، وهذه مسألة صعبة ؛ لأنك لا تستطيع تقدير المثلية أو ضبطها ، بحيث لا تتعدى ، فمثلاً لو ضربك خصمك ضربةً ، أتستطيع أنْ تردَّ عليه بمثلها دون زيادة ؟

إذن : فلا تُدخل نفسك في هذه المتاهة ، وأَوْلَى بك أنْ تأخذ بقوله تعالى ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران] وتنتهي المسألة .

فإذا كانت المصيبة لا غريمَ لك فيها ، كالمرض والموت وغيرهما من القدريات التي يُجريها الله عليك ، فقُلْ إن ربي أراد بي خيراً ، فبها تُكفَّر الذنوب والسيئات وبها أنال أجر الصابرين ، وربما أنني غفلت عن ربي أو غرَّتني النعمة ، فابتلاني الله ليلفتني إليه ويُذكِّرني به .

ومن المجاهدة مجاهدة النفس في تلقِّي المنهج بافعل ولا تفعل ، والتكليف عادةً ما يكون شاقاً على النفس يحتاج إلى مجاهدة ، وإياك أنْ تنقلَ مدلول افعل في لا تفعل ، أو تنقل مدلول لا تفعل في افعل . وحين تستقصي (افعل ولا تفعل) في منهج الله تجده يأخذ نسبة سبعة بالمائة من حركاتك في الحياة ، والباقي مباحات ، لك الحرية تفعلها أو تتركها .

وقد يتعرض الإنسان المستقيم للاستهزاء والسخرية حتى ممَّن هو على دينه ، لأن المنحرف دائماً يشعر بنقص فيتضاءل ويصغر أمام نفسه ، ويحاول أن يجر الآخرين إلى نفس مستواه حتى يتساوى الجميع ، وإلا فكيف تكون أنت مهتدياً مستقيماً وهو عاص ضالٌّ ؛ لذلك تراه يسخر منك ويُهوِّن من شأنك ، لماذا ؟ ليُزهِّدك في الطاعة ، فتصير مثله .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

ولا شكَّ أن مثل هذا يحتاج منك إلى صبر على أذاه ، ومجاهدة للنفس حتى لا تقع في الفخِّ الذي ينصبه لك .

وقد تأتيك الوسوسة من الشيطان فيُزيِّن لك الشر ، ويُحبِّب إليك المعصية ، وعندها تذكر قول الله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا .. (٢٧)﴾ [الأعراف]

فعليك - إذن - أن تتذكَّر العداوة الأولى بين أبيك آدم وبين الشيطان لتكون منه على حذر ، وسبق أن أوضحنا كيف نفرق بين المعصية التي تأتي من النفس ، والتي تأتي من وسوسة الشيطان ، فالنفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد غيرها ، أما الشيطان فإنْ تأبيتَ عليه في ناحية نقلك إلى أخرى ، المهم عنده أنْ يُوقعك على أي حال . إذن : أعداؤك كثيرون ، يحتاجون منك إلى قوة إرادة وإلى مجاهدة .

ومجيء هذه الآية التي تذكر الجهاد بعد قوله تعالى ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥)﴾ [العنكبوت] يطلب من الإنسان الذى يعتقد أن أجلَ الله بلقاء الآخرة آت ، وذلك أمر لا شكَّ فيه ـ يطلب منه أنْ يستعدَّ لهذا اللقاء .

وقال تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦)﴾ [العنكبوت] لأن الإنسان طرأ على كون مُهيأ لاستقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، فكل ما فى الكون خادم لك ، ولن تزيد أنت فى مُلْك الله شيئاً ، وكل سَعْيك وفكرك لترف حياتك أنت ، فحين تفعل الخير فلن يستفيدَ منه إلا أنت وربك غنى عن عطائك .

فإنْ جاهدتَ فإنما تجاهد لنفسك ، كما لو امتنَّ عليك خادمك بالخدمة فتقول له : بل خدمتَ نفسك وخدمتَ عيالك حينما خدمتَ لتوفر لك ولهم أسباب العيش ، وأنا الذى تعبتُ وعرقتُ لأوفر لك المال الذى تأخذه .

وكذلك الحق سبحانه يقول لنا ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ .. (٦)﴾ [العنكبوت] أى : حينما يطبق المنهج ويسير على هُداه ، والحق سبحانه يؤكد هذه القضية فى آيات عديدة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت]

ويقول الحق سبحانه : ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا .. (٧)﴾ [الإسراء]

ويقول سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. (٢٨٦)﴾ [البقرة]

إذن : المسألة منك وإليك ، ولا دخلَ لنا فيها إلا حرْصنا على صلاح الخَلْق وسلامتهم ، كصاحب الصَّنْعة الذى يريد لصنعته أن

تكون على خير وجه وأكمله ، لذلك أفيضُ عليه من قدراتى قدرة ، ومن علمى علماً ، ومن بَسْطى بَسْطاً ، ومن جبروتى جبروتاً ، وأعطيه من صفاتى .

لذلك قال بعض العارفين : « تخلقوا بأخلاق الله » .

لأن العون فى وهب الصفات ومجال الصفات فى الفعل ليس فى أنْ أفعل لك ، إنما فى أنْ أعينك لتفعل أنت ، فالواحد منا حينما يرى عاجزاً لا يستطيع حَمْل متاعه ، ماذا يفعل ؟ يحمله عنه ، أى : يُعدِّى إليه أثر قوته ، إنما يظل العاجز عاجزاً والضعيف ضعيفاً كلما أراد شيئاً احتاج لمن يقوم له به .

أما الحق - سبحانه وتعالى - فيفيض عليك من قوته ، ويهبُ لك من قدرته وغنَاه لتفعل أنت بنفسك ؛ لذلك مَنْ يتخلق بأخلاق الله يقول : لا تعْطَ الفقير سمكة ، إنما علِّمه كيف يصطاد ، حتى لا يحتاج لك فى كل الأوقات ، أفِضْ عليه ما يُديم له الانتفاع به .

إذن : الحق سبحانه يهَبُ القادرين القدرةَ ، ويهَبُ الأغنياء الغنَى ، والعلماءَ العلمَ والحكماءَ الحكمةَ . وهذه من مظاهر عظمته تعالَى ألاَّ يُعدِّى أثر الصفة إلى عباده ، إنما يُعدِّى بعض الصفة إليهم ، لتكون ذاتية فيهم .

بل ويعطى سبحانه ما هو أكثر من ذلك ، يعطيك الإرادة التى تفعل بها لمجرد أن تفكر فى الفعل ، بالله ماذا تفعل لكى تقوم من مكانك ؟ ماذا تفعل حينما تريد أنْ تحمل شيئاً أو تحرك عضواً من أعضائك ؟ هل أمرتها أمراً ؟ هل قلت لها افعلى كذا وكذا ؟

حين تنظر إلى (البلدوزر) مثلاً أو (الونش) كيف يتحرك ،

وكيف أن لكل حركة فيه زراً يحركهـا وعمليات آلية معقدة ، تأمل فى نفسك حين تريد أن تقوم مثلاً بمجرد أن تفكر فى القيام ، تجد نفسك قائماً ، مرادك أنت فى الأعضاء أن تفعل وتنفعل لك .

إذن ، حينما يقول لك ربك : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس] فصدِّقه ؛ لأنك شاهدتها فى نفسك وفى أعضائك ، فما بالك بربك ـ عز وجل ـ أيعجز أن يفعل ما تفعله أنت ؟ ماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تنام أو تبطش بيدك ؟

لا شىء غير الإرادة فـى داخلك ؛ لأن ربك خلع عليك من قدرته ، وأعطاك شيـئاً من قوله (كُنْ) ، وقدرة من قـدرته ، لكن لم يشأ أنْ يجعلها ذاتية فيك حتى لا تغترّ بها .

لذلك إنْ أراد سبحانه سلَبَـها منك لقوله تعالى : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق] فتـأتى لتحرك ذراعك مثـلاً فلا يطاوعك ، لقد شُـلَّ ويأبى عليك بعد أنْ كان طَوْع إرادتـك ، ذلك لتعلم أنه هبَة من الله ، إنْ شاء أخذها فهى ليست ذاتية فيك .

فالمـجاهدة تشمل مـيادين عديـدة ، مجاهدة الغـرائز والعواطف ، ومجاهدة مشقة المنهج فى افـعل ولا تفعل ، ومجاهدة شياطين الإنس والجن ، ومجاهدة خصوم الإسلام الذين يريدون أنْ يُطفئوا نور الله .

وروى البـخـارى أن خبـاب بن الأرتّ دخل علـى سيـدنا رسـول الله ﷺ فقـال : يا رسول الله ، إننا فى شـدة ، ألاَ تستنصـر لنا ؟ ألاَ تدعو لنا ؟ فقـال ﷺ : إنه كان الرجل فيمن قبلكم تُحفـر له الحفرة ، فيُوضع فيها ، ثم يُؤتَى بالمنشار فـيُقَدُّ نصفين ، ثم يُمشَطُ لحمه عن عظمه بأمشاط الحديد ، فلا يصرفه ذلك عن دين الله » .

ثم يطمئنه رسول الله على أن هذه الفترة ـ فترة الابتلاء ـ لن تطول ، فيقول : « والله لَيُتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا اللهَ والذئبَ على غنمه »(١) .

والنبى ﷺ وهو خاتم النبيين ، يدخل عليه سيدنا أبو سعيد الخدرى فيجد رسول الله ﷺ يشتكى حرارة الحمى ، فوضع يده على اللحاف الذى يلتحف به سيدنا رسول الله ، فيُحسّ حرارته من تحت اللحاف ، فقال له : يا رسول الله ، إنها لشديدة عليك ؟ فقال ﷺ : « يا أبا سعيد ، إنه يُضعَّف لنا البلاء كما يُضعَّف لنا الجزاء »(٢) .

ذلك ليثبت أن البلاء لا يكون فقط من الأعداء ، إنما قد يكون من الله تعالى ، لماذا ؟ لأن الله يباهى ملائكته بخَلْقه الطائعين المخبتين الصابرين ، فيقولون : كيف لا يحبونك ويقبلون على طاعتك ، وقد أنعمتَ عليهم بكذا وبكذا ؟ ويذكرون حيثيات هذه الطاعة ، فيقول تعالى : وأسلب كل ذلك منهم ويحبوننى ، أى : يحبوننى لذاتى .

ثم تختم هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٦ ﴾ [العنكبوت] لأن ميادين الجهاد هذه لا يعود منها شىء إلى الله تعالى ، ولا تزيد فى مُلكه شيئاً ، إنما يستفيد منها العبد ؛ لأنه سبحانه الغنى عن طاعة الطائعين وعبادة المتعبدين ، ليس غنياً عنهم وفقط ، إنما هو سبحانه الذى يُغنيهم ويُفيض عليهم من فَضْله ومن غناه .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٨٥٢) ، وأحمد فى مسنده (٣٩٥/٦) من حديث الخباب بن الأرتّ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٤٠٢٤) من حديث أبى سعيد الخدرى قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك ، فوضعت يدى عليه ، فوجدت حره بين يدىّ فوق اللحاف ، فقلت : يا رسول الله ما أشدها عليك . قال : « إنا كذلك يُضعَّف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

يذكر لنا - سبحانه وتعالى - النتائج ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : بالله رباً ، له كل صفات الكمال المطلق ، وله طلاقة القدرة ، وله طلاقة الإرادة ، وهو المهيمن ، وهو الحاكم .. إلخ .

ثم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن العمل الصالح نتيجة للإيمان ، وثمرة من ثمراته ، والصالح : هو الشيء يظلُّ على طريقة الحُسْن فيه فلا يتغير ، فقد أقبلت على عالم خلقه الله لك على هيئة الصلاح فلا تفسده ، وهذا أضعف الإيمان أنْ تُبقى الصالح على صلاحه ، فإن أردتَ الارتقاء ، فزدْه صلاحاً .

يقول تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [البقرة]

فقد أعدَّ الله لنا الأرض صالحة بكل نواميسها وقوانينها ، ألاَ ترى المناطق التى لا ينزل بها المطر يُعوِّضها الله عنه بالمياه الجوفية فى باطن الأرض ، فماء المطر الزائد يسلكه الله ينابيع فى الأرض ، ويجعله مخزوناً لوقت الحاجة إليه ، وتخزين الماء العذب فى باطن الأرض حتى لا تُبخِّره الشمس ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا[1] فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك]

وضربنا مثلاً لترك الصالح على صلاحه ببئر الماء الذى يشرب

(١) غار الماء : ذهب فى الأرض . [القاموس القويم ٢/٦٣] .